حَاتِم الطَّائِيّ
الّذى ضُرِبَ المثلُ بِجُودِهِ وكَرَمِهِ !

أشهر من نار على علم !

تُرَدّد اسمَه الأجيال جيلا بعد جيل ....، وكيف لا وهو رمز للكرم ، وإليه ينسب كل ما نقوم به من مجاملات ، ومساعدات، وتعاون على الخير والبر ، وإغاثة للملهوف ، ونجدة للمكروب ؟!

وحين يبلغ العمل الإنسانىّ مداه يقول الناس متعجبين : ياله من كرمٍ حاتِمىّ !!

إنه حاتِم بنُ عبدِ اللّه بنِ سَعْد ...

وأمه عتبة بنت عفيف من طيّئ ..

كان جَوَادًا شاعرًا شجاعا مظفَّرًا ، إذا قاتل غلب ، وإذا غَنِم أنهب [1] ، وإذا سُئل وَهَب ، وإذا أَسَر أَطْلَق ، وإذا أثرى أنفق !

وقد أقسم باللّه لا يقتل فى حروبه واحدَ أُمّه !

إنه مع ذلك شاعر من شعراء الجاهلية ، وله ديوان شعر يفيض بكرمه !

وربنا سبحانه هو الكريم ، ومن كان كريم الخلق ، فقد تسمى باسمه ، واحتذى على صفته .

وأجواد العرب فى الجاهلية ثلاثة نفر : حاتِم بن عبد اللّه الطائى ، وهَرم بن سِنان المُرّى ، وكعب بن مامة الإيادى ، ولكن المضروب به المثل حاتِم وحده .

(١) أشرك الآخرين معه فيما غنم يأخذون ما يشاءون !

أليس هو القائل لغلامه يَسَار : أوقد نارًا فى بقاع من الأرض - عندما اشتد البرد - لينظر إليها من ضل الطريق ليجد حولها الدفء والطعام عندما يقبل عليها !

لقد قال فى ذلك :

أوْقِدْ فإن الليلَ ليلٌ قُرُّ

والريح ياواقدُ ريحٌ صِرّ [1]

عَلّ يَرى نارَك من يَمُرّ

إن جلبت ضيفًا فأنت حُرّ

وأراك تسأل عن أجواد العرب فى الإسلام يقول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد :

أجواد الحجاز ثلاثة فى عصر واحد ، وهم : عبيد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص .

أنت إذًا مع حاتم الطائى القحطانى ، إنه أبو عدى الذى قدم على النبى ﷺ فى شعبان من سنة سبع ، وكان شريفا فى قومه حاضر الجواب ، فاضلا كريما، وابنته «سَفّانه» التى أسلمت ، ودعت قومها إلى الإسلام .

لقد كان حاتم من أهل نجد ، وزار الشام ، فتزوج «ماوية» بنت حُجْر» الغسانية .

وأخباره كثيرة متفرقة فى كتب الأدب والتاريخ ، وأرَّخوا وفاته فى السنة الثامنة بعد مولد النبى ﷺ .

فتعال نسبح فى بحر كرمه ، وعساك تجيد فن العوم !

---

(١) القُر -بضم القاف - البرد . وريح صر -بكسر الصاد : شديدة البرودة .

من شابه أباه فما ظلم !

يقولون فى أمثالهم :

«من شب على شىء شاب عليه» ، و«من شابه أباه فماظلم» و«هذا الشبل من ذاك الأسد» و«ذرية بعضها من بعض» .

وفى مثل «عدى بن حاتم» تقال هذه الأقوال الحكيمة ، فقد أخرج الإمام أحمد عن تميم بن طرفة قال :

سأل رجل عدى بن حاتم مئة درهم ! ، فقال : **تسألنى مئة درهم ، وأنا ابن حاتم فى سماحته ، وجوده ، وكرمه ؟!**

والله لا أعطيك . (قال ابن حجر : وسنده صحيح)

إنه ـ وهو الكريم ابن الكريم ـ يري أن العطية على قدر المعطي ، ومئة درهم عَطِيَّة لاتناسب قدره ، ولاتناسب مروءته ونجدته ، فكيف يعطيها ؟.

ألم يقولوا : إن الهدية على قدر معطيها ؟!

هذا عدى بن حاتم ، أما «سَفّانة بنت حاتم» فقد سبقته إلى الإسلام وحَسُن إسلامها .

ويقال : إن عدى بن حاتم من ماوية ، وأنها من بنات ملوك اليمن . ويقال : من النّوار زوجته الثانية. وستأتى أخبارهما.

كرم مبكر !

كان لحاتم قُدور[1] عظام معدة بفنائه مهيأة للطبخ فإذا أهلّ رجب نحر كلّ يوم ، وأطعم !

ومما يُحكى عن كرمه المبكر أن أباه قد جعله يقوم على إبل ،

(١)جمع قدر : مايطبخ فيه .

وهو غلام فمر به ثلاثة من الشعراء وهم :

١- عبيد بن الأبرص .

٢- وبِشر بن أبى خازم .

٣- والنابغة الذّبيانى .

وكانوا يريدون «النعمان بن المنذر» فنحر لكل منهم بعيرا ، وهو لا يعرفهم !

ثم سألهم عن أسمائهم ، فتسموا له ، ففرق فيهم بقية الإبل، وعاد إلى أبيه ، وهو يقول له : يا أبت ؛ طوّقتك مجد الدهر طوق الحمامة ! وحدثه بما صنع !

فقال أبوه : إذًا لا أُسَاكِنُك[1] !

قال : إذًا ، لا أبالى ! ، فاعتزله ، وكانت أمه «عتبة» ذات سخاء وجود ، وكان إخوتها يمنعونها من ذلك ، وتأبى عليهم ، وكانت موسرة ، فحبسوها سنة لا يقدمون إليها إلا القليل من الطعام لعلها تكف عما هى عليه ، إذا ذاقت طعم البؤس ، وعرفت فضل الغنى ، ثم أخرجوها ، ودفعوا إليها قطيعا من الإبل من مالها ، فأتتها امرأة من هوازن تشكو إليها الجوع، فقالت لها :

دونكِ [2] هذا القطيع ، فقد - والله - مسنى من الجوع ما آليت معه أن لا أمنع سائلا شيئا ، ثم أنشدت :

لعمرى لَقِدْماً [3] عضّنى الجوعُ عضةً

فآليتُ أن لا أمنع الدهرَ جائعا

---

(١) لايجمعنى وإياك سكن .

(٢) دونك : خذيه .

(٣) قدما : قديما .

فـقـولا لهـذا اللائم : الآن أَعْـفِنى

فإن أنت لم تفعل ، فَعَضّ الأصابعا

فـهل مـا ترون اليـوم إلا طبـيـعـةً

فكيف بتركى - يابن أمى - الطبائعا ؟!

إنهـا ذرية بعـضـهـا من بعض ، ورثت الكرم ، فـأصـبح فى طبيعتها ، فكيف تتخلى عنه ؟

لقد ورث حاتم الكرم والجود عن أمه «عُتبة».

كما ورث عدىّ ابنه الجود عن أبيه !

وكان حاتم مسالماً ، ومن خير وصاياه لابنه عدى :

يا بنى ..

إنى رأيت الشّرَّ يتركُك إن تركته ؛ فاتركه !

فيالها من وصية ذهبية !!

.. ومن منا لايوَدّ - من كل قلبه - أن يتركه الشر ، ويرحل عنه في عصرنا الذي تحاصرنا فيه الشرور؟!

قصة زواجه من ماوية

ذهب حـاتم إلى «مـاوية» يخطبـهـا من أبيـهـا ، فـوجـد عندها النابغة الذبيانى ، ورجـلا آخـر يخطبانها ، فقالت لهم : انقلبوا إلى رحـالكم ، وليـقل كل واحـد منكم شـعـرا يذكـر به فـعـاله ، ومنصبه ؛ فإنى متزوجة أكرمكم وأشعركم ، فانطلقوا ، ونحـر كل واحـد منهم جَـزورًا [1] ، ولبـست «مـاوية» ثيـاب أمـة لهـا ، وتبعتهم ، فأتت النابغة واستطعمته [2] ، فأطعمها ذَنَب جزوره ،

(١) جملا .

(٢) طلبت منه أن يطعمها .

فأخذته ، وأتت الآخر ، فأطعمها مثل ذلك ، فلما أتت حاتما ، قدم لها ثلاث قطع أطيب ما فى الجَزور ، وأهدى كل رجل منهما إليها ما بقى من الجَزور .

فلما أصبح الصباح اجتمعوا لديها ، وأنشد كل واحد شعرا ، أما حاتم ، فقد قال :

أمـــــاوىّ إن المالَ غـــــادٍ ورائـح

ويبـقى من المال الأحـاديثُ والذّكـر

وقـــد علم الأقـــوام لو أن حـــاتما

أراد ثـراءَ المالِ كـــان لـه وفـــرُ

فلما فرغوا من إنشادهم دعت بالمائدة ، وقدمت إلى كل رجل منهم ما كان أطعمها ، فنكس كل منهم رأسه ما عدا حاتما ، فإنه رمَى بالذى قُدّم إليهما ، وأطعمهما مما قُدّمَ إليه فتسللا خَجَلاً ، وعرفا أن الاختيار قد وقع على حاتم ، فتزوجته [1] !

حاتم والأسير !

خرج فى الشهر الحرام يطلب حاجة ، فلما كان بأرض «عَنْزَة» ناداه أسير لهم :

يا أبا سَفّانة ، أكلنى الإسار[2] والقمل !

فقال : وَيْحَك ! ما أنا فى بلاد قومى ، وما معى شىء ، وقد أسأتنى إذ نوّهت باسمى ، ومالَك مَتْرَك[3] !

ثم ساوم به العَنْزِيِّين ، واشتراه منهم ، فخلاّه[4] ، وأقام مقامه فى قيده حتى أتِىَ بفدائه ، فأدّاه إليهم!

---

(١) بعدما عرفت مدى بخلهما ، وجود حاتم عندما استطعمتهم جميعا ، وكان تقديم ما أطعمها كل واحد منهم على ماندتها لهم تعبيرا عن رأيها فيه !

(٢) الإسار : ما يقيد به الأسير .

(٣) لا يمكنني تركك .

(٤) أطلق سراحه .

تحكى امرأتُه «مَاويّة» فتقول :

أُصـاب الناسَ شـدةٌ ، وحلّ بهم الجـدْبُ ، فـهلَك الخُفّ والحافر[1] ، فبتْنا ليلة بأشد الجوع !

فأخذ حاتم «عَديًا» ، وأخذت أنا «سَفّانة» فعلّلناهما [2]حتى ناما ، ونسيا ما هما فيه من الجوع .

ثم أخذ يُعَلّلنى بالحديث لأنام !

فأشفقت عليه ، وقدرتُ ما هو فيه ، وتألّمت لما به من الجَهد ، فأمسكت عن كلامه ليظن أنى نائمة، وينام هو الآخر !

فقال لى : أنمت ؟ وكررها مرة بعد أخرى ، فلم أردّ عليه ، ولم أُجبْه ، فسكت ، ونظر من وراء الخباء[1] ، فإذا شىء قد أقبل ، فرفع رأسه ، فإذا امرأة فى ظلام الليل تنادى وتقول :

يا أبا سَفّانة ، أتيتُك من عندِ صبية جياع !

فقال : أحضرينى صبيانك ، فوالله لأُشْبِعَنَّهم !

قالت ماوية : فقمت إليه مُسرعة ، فقلت :

بماذا يا حاتم ؟ فوالله ما نام صبيانُك من الجوع إلا بالتعليل !

فقام إلى فرسه ، فذَبحه ، ثم أجّجَ نارًا ، ودفع إلى المرأة شَفْرَةً ، وقال لها :

اشتوى ، وكلى ، وأطْعمى ولدَك !

وقال لى : أيقظى صبيتك ، فأيقظتهم ، ثم نظر إلى وقال : إن هذا لَلُؤْمٌ أن تأكلوا ، وأهلُ الحَىّ حالُهم كحالكم !

---

(١) الحيوانات .

(٢) ألهيناهما عن آلام الجوع .

(٣) الخيمة .

فمر عليهم بيتاً بيتاً وهو يقول : عليكم بالنار أيها القوم هُبّوا ، فاجتمعوا وأكلوا .

أما هو فقد تقنّع بكسائه ، وقعد ناحيةً حتى لم يوجد من الفرس على الأرض قليل ولا كثير إلا عظم وحافر !!

وإنه لأجوع إلى الطعام منّا ، فأنشأ يقول :

مَهْلاً نَوَارُ [1] أَقِلِّى اللَّوْمَ والعَذْلاَ
ولا تقولى لشىء فات : مافعلا
ولا تقولى لمالٍ كُنْتُ مُهْلِكَه
مَهْلاً، وَإن كُنتُ أُعْطِى السَّهَل والجبلا
يَرى البخيلُ سَبيلَ المالِ واحدةً
إنّ الجَوادَ يَرَى فى مَالِهِ سُبلاَ

بين حاتم وماويّة [2] !

لما تزوّج حاتم «مَاويّة» وكانت من أحسن النساء ، لبثتْ عنده زمناً ، ثم إن ابن عَمٍّ لَه - يقال له مالك - قال لماوية :

ما تصنعين بحاتم ؟ فوالله لئن وجد شيئاً ليُتْلِفَنّه، ولئن لم يجد ليتكلفن !

ولئن مات ليتركن ولدَه عِيالاً [3] على قومه !

طَلّقى حاتماً ، وأنا أتزوج بك ، فأنا خير لك منه ، وأكثر مالا ، وأنا أمسك عليك وعلى ولدك ؛ فقالت ماوية : صدقت؛ إنه لكذلك ، فلم يزل بها حتى طلقت حاتما .

وكان النساء ، أو بعضهن يطلقن الرجال فى الجاهلية ، وكان

---

(١) نوار : زوجته الثانية وقد سبقت الإشارة إليها .

(٢) ذيل الأمالي : ص١٥٣ .

(٣) عالة عليهم .

طلاقُهن أنهن يُحوّلن أبوابَ بيوتهن؛ إن كان الباب إلى المشرق جعلنه إلى المغرب ، وإن كان البابُ قِبَل اليمن جعلنه قبل الشام، فإذا رأى ذلك الرجل علم أنها قد طلقته ، فلم يأتها !

فأتى «حاتم» فوجدها قد حوّلت باب الخباء ، قال لابنه : يا عدىّ ؛ ماترى أمك ؟ ما عدا عليها ؟ قال : لا أدرى غير أنها غيرت باب الخباء ، وكأنه لم يفطن لما قال ؛ فدعاه ، فهبط به بطن وادٍ .

وجاء قوم فنزلوا على باب الخباء كما كانوا ينزلون فتوافى خمسون رجلا ، فضاقت بهم «ماوية» ذَرْعا فقالت لجاريتها : اذهبى إلى مالك ، فقولى له : إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا ، وهم خمسون رجلا ، فأرسل إلينا بناب[1] نَقْرهم (نطعمهم) ، ولبن نَغبُقْهم (نَسْقِهم بالعشى) .

وقالت لجاريتها : انظرى إلى جبينه وفَمِه ، فإن شافهك بالمعروف فاقبلى منه ، وإن ضرب بلَحْيَيْه على زَوْرِه ، فارجعى ودعيه !

فلما أتت مالكا وجدته متوسدًا وَطْبًا [2] من لبن ، فأيقظته ، وأبلغته الرسالة ، وقالت : إنما هى الليلة حتى يعلم الناس مكانه .

فأدخل يده فى رأسه ، وضَرَبَ بلحْيَيْه على زوره ، فقال لها : اقرئى عليها السلام ، وقولى لها :

هذا الذى أمرتُك أن تطلقى حاتما من أجله ؛ فما عِندى من كبيرة قد تركت العمل . وما كنت لأنحر صفية «ناقة» غزيرة بشحم كُلاَها [3] ، وما عندى لبن يكفى أضياف حاتم !

(١) الناب : الناقة المسنة والجمع : نيب .

(٢) الوطب : سقاء اللبن من جلد .

(٣) جمع كلية بضم الكاف .

فرجعت الجارية ، فأخبرتها بما رأت منه ، وأعلمتها بمقالته، فقالت لها : ويلك ! ، ائتى حاتما فقولى له :

إن أضيافَك قد نزلوا الليلة بنا ، ولم يعلموا بمكانك ، فأرسل إلينا بناب ننحرها ، نقْرهم ، وبلبن نسْقهم ، فإنما هى الليلة حتى يعرفوا مكانك ! فأتت الجارِية حاتما ، فصرخت به ، فقال حاتم : لبيك ! قريباً دَعَوْت !

فقالت : إن «ماوية» تقرأ عليك ، وتقول لك : إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ، فأرسل إلينا بناب ننحرها لهم ، ولبن نسقيهم، فقال : نعم ، وأبى ! ، ثم قام إلى الإبل فأطلق ثَنِيَّتَين «ناقتين في السادسة» من عقالهما ، ثم صاح بهما حتى أتى الخباء ، فضرب عراقيبهما ، فطفقت ماوية تصيح وتقول : هذا الذى طلقتك فيه ، تترك ولدك ، وليس لهم شىء !!

من أجمل ما قاله العرب

قال عبد الملك بن مروان لبعض جلسائه يوما :

أخبرنى بأفضل بيت قالته العرب فى الجود ؛ فأنشد لحاتم الطائي :

أمَاوِيَّ ما يُغنى الثّرَاءُ عَنِ الفَتَى
إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وضَاقَ بها الصَّدْرُ
تَرَىْ أنّ مَا أَبقَيْتُ لَمْ أَكُ رَبَّهُ[1]
وأنّ يَدِى مِمّا بخلْتُ بهِ صِفْرُ
ألَمْ تَرَ أنّ المالَ غَادٍ ورَائِحٌ
ويَبْقى مِن المالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ

(١) ربه : صاحبه .

غَنِينَا زَمَانًا بالتَّصَعْلُك والغني[1]

فَكُلاً سقَانَاه بَكأْسَيهما الدَّهْرُ

فما زَادَنا بغْياً عَلى ذِي قرابةٍ

غنَانا ، ولا أزْرى بأحسابنا الفَقْرُ

وأراك تقول فى نهاية هذا اللقاء مع حاتم أشهر الكرماء: وهكذا يكون الكرم !!

وعندما يتراءى لنا حاتم نجد إلى جانبه عديًّا ابنه ..

أولاد الكرام !

لقد كان عدىّ بنُ حاتم امتدادًا لأبيه حاتم ..

يقول ابن حجر فى كتابه «الإصابة فى تمييز الصحابة» أسلم فى سنة تسع ، وكان نصرانيا قبل ذلك ، وثبت على إسلامه فى الرّدة ، وأحضر صدقة قومه إلى أبى بكر ، وشهد فتح العراق ، ثم سكن الكوفة ، وشهد صفين مع على رضي الله عنه .

وعنه : «ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء».

وقال الشعبىّ عن عدى : أتيت عمر فى أناس من قومى ، فجعل يَفْرِضُ [2] للرجل ، ويُعرضُ عنى ، فاستقبلته ، فقلت : أتعرفنى ؟ قال : نعم ..

«آمنتَ إذْ كفروا ، ووَفَيْت إذ غدروا ، وأقبلت إذْ أدبروا، إن أول صدقَةٍ بيضت وجوهَ أصحاب رسول الله ﷺ صدقةُ طيئ ».

أما «سفانة» فإنها قد أسرت ، وأطلق سَراحها وأُرْسلَت مع ثقة يبلغها بلادها ، ولم يكن أخوها قد أسلم بعد ، فدعته إلى الإسلام بعد أن كانت قد أسلمت وحسن إسلامُها .

(١) تصعلك الرجل : افتقر .

(٢) يجعل له نصيبا من بيت المال وراتبا .

وروى قصتها الطبرانى ، وأبو نُعيم ، والخرائطى فى «مكارم الأخلاق» .

وأراك تقول :

وإنما المرء حـــــديث بعـــــده

فكن حـــديثـــا حـــسنا لمن وعى